

رحلة الغياب

يوسف الجديري

تمتص عيوني خيط الدم الأحمر الذي يسيل عبر المجرى المائي الصغير وسط باحة الدار . . وعلى مبعده خطوات يتألق - الثيل - الأخضر . . وتفتح براعم الجوري والأشرفي والقдах . . وخلف ستارة كثيفة من بطانية مستهلكة تمتد منضدة خشبية عتيقة يرقد فوقها الفارس القتيل - المغدور حيث يتم غسل وتعطير جسده الشامخ - الرائع رغم سكونه الأبدي - بالبخور وأوراق النعناع . . فهو الآن على موعد مع عروسه التي اختارها بعد سنوات طويلة من التمتع والخوف من الزواج . . بعد نصف ساعة فقط ستودعه الزغاريد . . حيث تنتظره حفرة غائرة . . على عمق مترين تحت الأرض . . عندئذ سيرقد فوق سريره السماوي بهدوء وصمت الحكماء والرجال المحنكين وبشجاعة الفرسان الحقيقيين مع زفرة أسي للعمر القصير الذي انتهى بسرعة خاطفة وكأنه وميض برق أو انطفاء شمعة ثم . . ساد ظلام خانق كثيف! لقطات كبيرة . . وملونة من حياة الفارس القتيل

- لقطه (١) - كلوزآب - للفارس وهو يتسم -

تجلجل ضحكته العريضة . . ويكاد يستلقي على ظهره للنكتة الجديدة التي رويتها له . . ثم يهمس في أذني . . وثمة بسمة مشرقة تضيء المكان .

- لقد قررت أخيراً أن أتزوج . . هه . . ماذا تقول؟! -

- جميل . . رائع . . إنه عين العقل يا عزيزي . .

هتف . . وكنت سعيداً جداً . . للمفاجأة . .

في الساعة السادسة صباحاً . . من يوم ربيعي رائق . . رن جرس الهاتف .

- ألو . . من؟ عبد المجيد . . ماذا تقول؟ مات . . ولكن كيف؟! -

كان تهدج صوته واضحاً عبر أسلاك الهاتف . . وكنت في الطرف الآخر وحيداً . . مليئاً بالحزن . . والغضب . !

هل أطيق مواجهة القدر بكل قسوته؟ أو أمنع موت شقيقي - نور - من أن يصبح حقيقة سوداء . . ماذا بقي إذن في لغة العقل والمنطق؟! هكذا إذن . . . وينتهي كل الحلم الملون الكبير . . كل الخضرة والربيع والرغبات المؤجلة والمحبطة منذ زمن بعيد . . هكذا ينتهي الفارس بعد أن يكبو به جواده الأحمق . . فيهوي من حالق ينرغ وجهه التراب وتشد قبضتاه القويتان على الأرض . . ثم يحاول النهوض بما بقي في جسده المتعب من فتوة وقوة . . غير أنه يستلقي أخيراً على ظهره بلا حراك . . تمتص عيناه الجميلتان . . الغائمتان . . زرقة السماء الربيعية، فلا يجد من يغمض له جفنيه، فتظل عيناه مفتوحتين . . فيهما أكثر من عتاب وأسف . . للعمر القصير الذي ضاع في لحظات جنونية . . وعلى بعد خطوات منه . . كان نثار الزجاج يلمع تحت شمس آذار المتوهجة مع بقع من دم متخثر وجثة سيارة محطمة . «بين الولادة والموت . . زمن قصير . . بل لحظات وينتهي الفتى . . ويسقط الفارس مضرجاً بدمائه . . ماذا بقي إذن في لغة العقل والمنطق؟!» .

سرى لفظ وهمهمة بين الحضور . . فكنت ألتقط وأنا في أقصى حالات الحزن والغضب كلمات من مثل : السيارة كانت من طراز حديث . لقد انفجر الإطار الأمامي فجأة . . لم يكن السائق مدرباً بشكل جيد . . كان المرحوم غافياً في الحوض الخلفي متعباً . . بعد أن أمضى أكثر من ثلاث ساعات في الليلة السابقة بعد إنتهاء الدوام الرسمي في إصلاح المكائن الثلاث المعطوبة منذ أكثر من شهرين . . وبعد أن عجز الخبير الأجنبي عن إصلاحها . .

إن موته خسارة كبيرة للوطن . . لا أحد يعرف السبب الحقيقي للحادث المفجع إلى الآن . . وكل ما قيل . . ويقال . . إنما هو من قبيل التخمين . .

قال صوت ينفخ حسرة وألماً :

- هل نسيتم كيف كان يشاركنا الطعام دون عجرفة أو غرور فارغ كما يفعل البعض . . وكيف كان يستفسر عن أوضاعنا البيئية . . حتى في ساعات راحته؟

انقطع اللفظ فجأة . . وساد صمت عميق . . فقد كان صوت المقرء العذب يتغلغل في العروق ببطء غريب . .

[لقطة - ٥ - بالأسود والأبيض - باكراً وند . . قبل عشرين عاماً المنظر : حي عمالي . . شارع رئيسي، حوانيت لجمعية استهلاكية . . عطار . . إسكافي - بائع خضراوات . . مقهى صغير . . جزار . . حوانيت أخرى متنوعة].

الصبي - نور - ابن الثانية عشرة . . تلميذ في الصف الخامس الابتدائي . . ذكي . . درجات شهرية عالية في كافة الدروس . . المدرسة مزدوجة . . الدوام

- ترى من يكون . . يا نور؟

سألت بتلهف :

أشعل لقافة . . بعد صمت قصير أضاف وعلى شفثيه ابتسامة سخرية :

- إنه ضريح نابليون بونابرت . . !

صرخت :

- أووه . . يا له من ضريح جميل . . هل هذا كل ما بقي من بونابرت . . مجرد حجر ضخمة . . صامتة؟!

- إنه حجر من نوع غريب . . في تركيبه . . ولونه .

- إذن . . فقد استطاع هذا الحجر الغريب أخيراً . . أن يضع

- ولكن . .

همس وهو ما زال يتسهم .

- ماذا؟ نفس الشروط التعجيزية؟ .

قلت . . وقد غمرني شعور مبهم بالخوف :

- لا . . لا . . لقد تنازلت عن بعضها . . ولكن القوام الرشيق

وزرقة العيون شرطان لا بد منهما . .

- ولكن السعادة يا أخي . . ليست .

قاطعني بلهجة حادة .

- أرجوك . . هذه هي شروطي . . «بعد صمت مفاجيء» . .

وإلا . .

وإلا ماذا؟ . . وألفهي عليك . . وكأنك كنت تهددنا بالموت

الذي ربما كان شبحة المريع يحوم حول رأسك !

- لقطة (٢) - ملونة وكبيرة . . من حياة الفارس القتيل -

غصّ العامل الأول . . وهو يردد .

- أبداً لن أنساه - وأسفي عليه - لقد زارنا مرة في البيت «وهو

المدير الغني للمصنع» وأنا العامل البسيط . . كان يرتدي ملابس

العمل . . ولم تكن بسمته العريضة لتفارق وجهه الجميل وهو

يداعب صغاري . . وكأنه واحد من أفراد أسرتي !

غمغم العامل الثاني بحزن . . وكز على أسنانه وكأنه ينفس

بذلك عن غضبه وحزنه .

- وأنا . . ألم توصد في وجهي الأبواب حين احتجت لمبلغ

من المال لتكملة تشييد داري . . من الذي أنقذني من ورطتي

تلك سواء؟!

بعد صمت مفاجيء . . أضاف وعيناه مليتان بالدموع .

- مسكين . . إنه يذكرني بزهرة حمراء نادرة تنمو على سفوح

الجبال - تمتاز برائححتها الزكية . . غير أن عمرها قصير جداً . . إذ

سرعان ما تذبل وتتساقط تويجاتها الملونة . . وتبيس . . سوى

أن رائححتها تظل تعبق وتنتشر في المكان . . لفترة طويلة !

لقطة - ٣ - بالأبيض والأسود .

لقطة - ٤ - ملونة . . من المصنع -

غرق المصنع في ذهول عميق كأنه مقبرة . كان النبأ الفاجع قد

صعق الجميع . . فلم تندأ أي حركة أو نأمة لتشوّه جلال الصمت

الأسود الذي لف كل شيء برداء قاتم . . حزين . .

**

حداً لطموحه الكبير وجنونه العجيب . . ما أصغر نابليونك هذا . ؟!

«عملية مونتاج . . للقطات متنافرة» .

المونتير وحذقه مع شيء من العاطفة الإنسانية يخلقان شريطاً جديداً . . مليئاً بالإثارة . . حيث ينفعل القارئ فيتعاطف مع الحدث الفاجع . . ببسب وحب . . يستحقهما الفارس المغدور . .

لقطة - ٨ - في البيت :

يداعب الصغار بحب ويوزع عليهم الهدايا والحلويات . . بعد أن ينحني لتقبيل يد الوالدة كلما عاد من العمل .

لقطة - ٩ -

في حديقة داري الصغيرة . . يرشف الشاي بتلذذ كبير . . صدفة . . تعجبني ربطة عنقه . . فأعلق بكلمات قليلة . . لأرضي غروره الطفولي وذوفه الرفيع في إختيار الألوان المتناسقة . . فأقع في ورطة . . إذ سرعان ما يحل الرباط الأنيق ويقدمها لي هدية متواضعة بعد أن يغلبنى بأصراره العنيد على قبوله . . فأقف ذاهلاً . . شبه نادم . . وأنا أحلق فيه بنظرات غريبة . . حائرة!

لقطة - ١٠ - في مقهى صغير - عند مدخل شارح أبي نؤاس . .

ابتسامة مشرقة تملأ الوجه . . وقبل أن أحرك الملعقة داخل القدح الصغير . . يفرش ورقة مستطيلة أمام عيوني . . أقرأ العنوان . . فابتهج . . إنه أمر إداري يقضي بتعيينه مديراً عاماً لمصنع تحت التأسيس . . لصنع إطارات السيارات في إحدى مدن الوطن النامية . . أعتنقه بحب . . وأنا أكثر زهواً منه . . يحرق في وجهي المنشرح بنظرات عميقة . . تختصر كل تعب الأيام والسنوات الطويلة المليئة بالعمل الدائب والحب لكل الناس . . ما زال يحرق في وجهي وكأنه مرآة عاكسة يلمح من خلالها شريط الأيام القادمة . . ثم يغمغم بكلمات غامضة :

- هيه . . يا عزيزي . . إن ما وصلت إليه الآن يخيفني حقاً! . . رغم أنني أستحقه عن جدارة . . غير أن ما يلوح لي في الأفق البعيد يقلقني . . ترى . . هل أستطيع أن أرتاح قليلاً؟ . . بعد هذا التعب الكبير؟! . . أنا بحاجة ماسة يا أخي . . إلى راحة طويلة . . هذا ما أحسه . . أليس من حقي الطبيعي . . أن أستقر أخيراً؟! . . بعد صمت طويل :

- أوه . . لقد نسيت . . هل لك أن تجد العروس لي أخيراً؟! . . لقد وعدتني بذلك . . اطمئن . . سوف أقدم تنازلات أخرى . . هيا يا أخي . . أسرع . . أخشى أن . . يفوت الوقت . . ودون أن أحقق أمنية العمر الأخيرة! .

كلاكيت - لقطة رقم - ١٠ - آخر مرة ١٢ - ٣ - ١٩٧٧ .

في الأيام الثلاثة الأولى من الأسبوع (ظهري) . . يستغل الصغير - نور - فترة ساعات الصباح . . ليعمل عند الجزار عبد الفتاح . . لقاء مئة وخمسين فلساً . . خمسون فلساً مبلغ جيد لمصروفه اليومي . . والدرهمان الباقيان للوالدة العزيزة الشاكية دوماً من عدم كفاية الراتب الضئيل الذي يتقاضاه الوالد كل شهر . . والأسرة كبيرة . . والصغار في المدارس . . وهم لا يعرفون الشبع . . والصبي ينسى كل التعب الجسدي . . والذهني . . حين يستلقي على الفراش لينام وحين يلمح الأم وهي ترفع يديها للسماء . . تدعوه بطول العمر والنجاح في المدرسة :

- إن شاء الله تصير مهندس . . يا حبيبي . . يا نور . . كم شهم أنت يا رجل البيت صغير . .!

رجل البيت الصغير يقف الآن قرب سريرك يا أماه . . لقد كبير وأصبح رئيساً للمهندسين ومديراً فنياً للمصنع . . ها هو الآن يقف داعم العين . . يترقبك وأنت تلفظين انفاسك الأخيرة . . بعد أن توقفت أو كادت أن توقف كليتك الثانية حيث أخذ التسمم في الدم يسبب لك هذه الغيوبة الطويلة . . ها هو يلمح في عيون الأطباء علامات اليأس من إنقاذك . . هأنذا أسمع نشيجه الحارق وهو يغمر وجهك الحنون بقبلاته ودموعه . . إن رجلك وفارسك الشهم يا أماه . . يبكي الآن كالأطفال!

لقطة - ٦ - زوم:

- مدينة ألمانية صغيرة -

طالب البعثة - نور - داخل ورشة عمل تدريبية -

المدرّب الألماني يربت بيد حانية على ظهره . . ويردد بلكنة محببة وهو يتسم:

- كويس . . يا هر نور . . كويس . . إنت طالب كويس . . يا . . نور . .

يفرح نور لهذا الإطراء الذي جاء صادقاً . . ودون مجاملة . . تكبر البسمة في وجهه وتزدهر . . ولسان حاله يقول :

- سوف أعرف . . كيف أعمل من أجلك يا . . وطني الحبيب!

لقطة - ٧ - كلوزآب -

يخرج - نور - من حقيبة سوداء صغيرة، رزمة من بطاقات ملونة . . يغمغم والفرحة تملأ كيانه:

- أنظر جيداً . . هل تراني بوضوح؟ . . الثالث على اليمين . .
بملايس العمل في معمل . . للميكانيكا . . بمدينة -
ساربروكك - الألمانية الجميلة . . يضحك - وقد كست وجهه
حمرة شفيفة - حين يواجه نظراتي المشاكسة:

- هممم . . م . . م . . وهذه الشقراء الرائعة . . حتماً . . مجرد
طالبة و . . زميلة . . هه . . ماذا قلت؟!

- أقسم لك . . إنها مجرد . . زميلة . .

- نعم . . صدقت . . مجرد . . زميلة . .

ونستغرق معاً . . في ضحك طويل . .

- أوه . . ما هذا؟! برج إيفل . . قوس النصر . .
الشانزليزيه؟!!

يقول . . وقد امتلاً زهواً:

- مجرد إجازة . . بضعة أيام . . وكانت باريس . . حلم
العمر . . كم تمنيتك هناك . . . يا أخي!

لحظات صمت غريبة . . ثم يخرج صورة ملونة . . يحديق فيها
للحظات ثم يناولني إياها . . وقد كست وجهه صرامة وهدوء ثم
يشرح لي بلغة خبير:

- تأمل هذه الصورة جيداً . . إنها ضريح لرجل هز العالم
لسنوات وتسبب في موت مئات الألوف من البشر إرضاء لجنونه
وجبه للسلطة!

في الثالثة عصراً . . غادر المهندس - نور - المصنع . . بعد
أن صافح أصدقاءه العمال ومنحهم من المشاعر الشيء الكثير . .
إنه سيغيب عن المصنع بضعة أيام . . متجهاً نحو بغداد . .
لحضور ندوة لزيادة الانتاج . .

ربت على كتف العم - عبدالله - بحنان ظاهر . . فحارس
بوابة المصنع هذا يذكره بأبيه المرحوم الذي مات بجلطة في
الدماغ . . ولما يتجاوز الخمسين من عمره . .

شيعه العم عبدالله بنظرات فيها الحب الكبير لهذا المهندس
الشاب المليء حيوية وتواضعاً وعصامية . . وغمغم من بين
أسنانه المصفرة:

- لتحرك السماء . . يا ولدي!

المشهد الأخير

هدرت سيارة «البيجو» البيضاء أخيراً . . وانطلقت بعنف
حيث طبعت إطاراتها على الأرض خطوطاً سوداء ظلت لأيام
عديدة شاهدة بدء رحلة الغياب . . غمره شعور غريب . .
متناقض . . من الخوف والحب والرغبة العارمة في الحياة
الرغيدة المستقرة مع الزوجة والأطفال الذين يحبهم بشكل
جنوني . . لم تبق سوى أيام حين يستلم منصبه الجديد ويبدأ
تجربة جديدة مع العمل والحياة الزوجية . . إذن فهي رحلة
البداية نحو السعادة!

كان الهواء ربيعياً . . فيه رطوبة ممزوجة برائحة الأعشاب
الطرية والتراب المبتل . . هذه الرائحة الغريبة التي كان يحبها
كثيراً . . أغمض عينيه الواسعتين بعد أن ملأهما من مناظر المدينة
التي ولد فيها وعشقها . . وأكمل مراحل دراسته الثلاث فيها . .
كان متعباً جداً وارتخى في الحوض الخلفي للسيارة . . ثم
أغفى . . غير أنه نسي أن ينبه السائق على عدم السرعة كعادته . .

كانت السيارة الآن تنطلق بجنون وتطير كلعبة أطفال
صغيرة . . ثم تهوي كالصاعقة - إلى إسفلت الشارع العريض
الممتد كاللجنة . . وتنقلب عدة مرات وتندرج مثل كرة بيضاء
كبيرة . . لتستقر أخيراً على سقفها المهشم . . .

كان جسد المهندس - نور - على مبعده أمتار قليلة من حطام
السيارة المهشمة . . مع بقع من دم متخثر . . ونثار من زجاج
يلمغ تحت وهج شمس آذار الدافئة . .

لقطة صغيرة من المقبرة

كنت الآن معه . . تحت القفص الحديدي الذي يضم قبره .
أتلمس بأصابع مرتعشة . . الشاهدة الرخامية المنتصبة كاللجنة . .
أحديق في كلمات الرثاء التي حفرها أصدقاؤه فوقها . . كلمات
كالخناجر اللامعة تحت وهج الشمس . . راحت تمزقني . .

«هنا يرقد المهندس الشهيد الذي علمنا حب العمل للدرجة
الموت . .!» احتضنت القفص الحديدي . . وكنت مليئاً بالغضب
والحزن . . لامست شفاهي المحمومة القضببان الباردة وأنا
أحتضنها بشوق قاتل . . ورحت أشج بمرارة . . .

بغداد